

التصوف وعلم التصوف

الدرس
1

أهداف الدرس

1. أن أتعرف التصوف وعلم التصوف .
2. أن أدرك العلاقة بين التصوف وعلم التصوف .
3. أن أتمثل التصوف في سلوكي .

تمهيد

التصوف سلوك ما تصفو به النفس ، ويطمئن به القلب ، وهو محبوب بالفطرة ، ومرغوب لدى أهل الفطنة ، عُرف طالبوه بسلوك طريق الأدب والتربية ، وسارع سالكوه لذوقه رفقة ذوي الهمم العالية ، ولا سبيل إليه إلا بما سلكه أرباب التصفية . ولما له من الفضل تحلى به الصفوة من أولي العلم الذين بلغوا المنزلة ، فأسسوا له أصولاً ، ووضعوا له قواعد وحدوداً . فما التصوف المجلي لهذه المآثر السنية والمنازل العلية؟ وما علم التصوف المبلغ السائر في منازل أهل التخلية والتحلية؟.

نص الانطلاق

قال العلامة ابن خلدون - رحمه الله - مبيناً علم التصوف «هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله: أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها: العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة...، وصار علم الشريعة على صنفين: صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات، والعادات، والمعاملات،

وصنف مخصص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والموارد العارضة في طريقها وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك . فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه ، وأصوله ، والكلام ، والتفسير ، وغير ذلك ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم . . . ، وصار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط ، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والأصول وغير ذلك» . [مقدمة ابن خلدون ، ص 611] .

الفهم

استخلاص المضامين :

- أستخلص من النص أصل طريقة التصوف وأسباب اختصاص «الصوفية» بهذا الاسم .

الشرح :

- **الذوق:** حال يفجأ العبد في قلبه .
- **الطريقة:** سيرة سالكي المنازل ، وهي تتبع أفعال النبي ﷺ والعمل بها .
- **المجاهدة:** حمل النفس على مخالفة الهوى .

التحليل

أولا: التصوف

1. اشتقاق التصوف

اختلف في اشتقاق التصوف على أقوال: قيل من الصفة؛ إذ حاصله اتصاف بالمحامد، وترك للأوصاف المذمومة، وقيل من الصفاء، وقيل مشتق من الصوف؛ لأنه زي أهله غالبا، آثروه تواضعا، وتقللا من الدنيا، واتباعا للسلف. ومنهم من رجح أنه «منسوب إلى الصوف؛ لأنه في الغالب شعاره ودثاره، ولأن هذا اللفظ مشتمل على ثلاثة أحرف مقتطعة من ثلاث كلمات دالة على معان ثلاثة هي أوصافه المختصة به، فالصاد من الصفاء، والواو من الوفاء، والفاء من الفناء» .

[حاشية ابن حمدون على شرح ميارة ، 135/2] .



2. مدلول التصوف

نُقل عن الإمام الجنيد -رحمه الله- في معنى التصوف قوله: «أن يُميتك الحق عنك ويحييك به» ومعناه: استقامة العبودية بأن يفنى مراد العبد في مراد ربه وعلمه في علمه... ، فالتصوف استرسال النفس مع الله على ما يريد. وقيل: أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت. [الأزهار الطيبة النشر، لابن حمدون، ص 150].

ويدور معنى التصوف على «تجريد القلب لله واحتقار ما سواه» [الأزهار الطيبة النشر، لابن حمدون، ص 150] وهو علم وعمل، وجد في السير إلى الله، ووقوف مع آداب الشريعة ظاهراً وباطناً، وقد وضح أصله ومغزاه الإمام الجنيد -رحمه الله- بقوله: «تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الربانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة» [التعرف لمذهب أهل التصوف، للكلاذبي، ص: 34]. فهو: تصفية، ومفارقة، ومجانبة، ومنازلة.

3. مبادئ التصوف

مبادئ التصوف ما لا يصح التصوف إلا به -وهي غير ما يعرف بالمبادئ العشرة لكل علم، وسيأتي بيانها- فمبادئ التصوف هي «الأمر التي يبتدئ بها أهل هذا العلم بالكلام عليها» [حاشية ابن حمدون، 135/2] ومبادئ أهل التصوف (أي الصوفية) «الأمر التي يبتدئ بها الصوفي في سلوكه» [حاشية ابن حمدون، 135/2].

والمعتبر من التصوف تصوف العلماء من أولي الفضل والعرفان، المنضبط بالكتاب والسنة، المتجلي في سلوك الأئمة الأعلام الذين يعتد بقولهم ويقتدى بسلوكهم، كالإمام الجنيد، والإمام الغزالي، والشيخ زروق، وغيرهم من أهل العلم والفضل الذين وافق تصوفهم الكتاب والسنة، وشهد أهل العلم والفضل بصفاء حالهم ومقامهم؛ إذ التصوف حاصله «اتصاف بالمحامد، وترك للأوصاف المذمومة» [حاشية ابن حمدون، 135/2].

4. بم يتحقق التصوف؟

نيل شرف هذا الاسم دونه التغلب على هوى وعقبات النفس والتخلي بالفضائل؛ إذ «الصوفي من صفا من الكدر، وامتلاً من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر» [الأزهار الطيبة النشر، ص 150]. والاتصاف به لا يكون بالادعاء، بل بالعمل، والاتباع، وترك



المألوفات، وأسس الإمام الجنيد -رحمه الله- هذا المعنى بقوله: «ما أخذنا التصوف عن القال والقال، بل عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات» [طبقات الفقهاء الشافعيين، لابن كثير، ص 170]. والتصوف عند أربابه كما قال الإمام القشيري -رحمه الله- «مبني على ثلاث خصال: التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار، وترك التعرض والاختيار» [الرسالة القشيرية، عبد الكريم القشيري، 441/2]. والعبرة في تفاوت مراتب التصوف بدرجات صدق التوجه إلى الله، قال الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- «مَن له نصيب من صدق التوجه له نصيب من التصوف، وأن تصوف كل أحد صدق توجهه» [قواعد التصوف، أحمد زروق، ص 24].

ومن أماراته: التخلق بالأخلاق الحسنة، كالغفو، والإيثار، والإنفاق، والتواضع، وسلامة الصدر، وحسن الخلق، فهو ثمرة ما يكون من عبادة قلبية، وسلوكية، والتخلي بالأخلاق، وتركية النفس، والرقى بها في مدارج الوصول إلى الله، بما يكون من خشية، ومراقبة، وإنابة.

5. التصوف علم وعمل

مما تواترت به النصوص ارتباط العلم بالعمل تأثرا وتأثيرا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: 281] و«العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل» والتصوف قائم عليهما (العلم والعمل) بتحلية النفس بالفضائل وصونها عن الرذائل، ومما أثر عن الإمام الشافعي -رحمه الله- قوله: «من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه نبُل مقداره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن تعلم اللغة رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه». [الرسالة، للشافعي، ص 71].

وطريقة الصوفية «إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله» [المنقذ من الضلال، للغزالي، ص 178]. فالطريق إلى التصوف يكون: بعلم، وعمل، وبيانه - كما ذكر الإمام الغزالي متحدثا عن تجربة انتقاله إلى التصوف - «بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد...، فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق، والحال، وتبدل الصفات». [المنقذ من الضلال، للغزالي، ص 172].



6. من هم الصوفية وما طريقتهن؟

الصوفي من صفت أحواله ولم يبق فيه كدر أصلا، قال الإمام الغزالي: «الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق...، وبالجمل، فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها -وهي أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى» [المنقذ من الضلال، للغزالي، ص 178]. فطريق التصوف كما قال الإمام ابن عجيبة -رحمه الله- «من دخل فيها حيت روحه بمعرفة الله، وطابت حياته لذكر الله، فعاش عيشة طيبة، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْكُمْ وَأُتْبِعْهُ فُتُورًا مِّنْ قُلُوبِهِمْ فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيَاةً كَسْبَةً﴾ [النحل: 97]. فالحياة الطيبة هي الغنى بالله...» [الفتوحات الإلهية، أحمد بن عجيبة، ص 244].

ثانيا: علم التصوف

1. حقيقة علم التصوف

علم التصوف «هو العلم الباحث عن الآداب اللائقة بالعبد بين يدي رب الأرباب» [الأزهار الطبية النشر، ص 150]. وهو ما «يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدورات النفس...، وصفاتها المذمومة من الغل والحقد والحسد ونحوها» [حاشية ابن حمدون على شرح ميارة، 135/2] ويتوصل به إلى قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، طلبا لتخلية القلب من غير الله، وتحليته بذكر الله، وهو كما يقول الشيخ أحمد زروق -رحمه الله- «التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله تعالى عما سواه» [قواعد التصوف، أحمد زروق، ص 6]. وبعلم التصوف تعرف قواعد التزكية، ومصطلحات القوم، وأحوالهم، وآثارهم. وعلم التصوف نتائج الأعمال الصحيحة وثمرات الأحوال الصافية.

2. أساس علم التصوف:

علم التصوف قائم على الكتاب والسنة، قال الإمام الجنيد -رحمه الله- «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه، لا يقتدى به» [طبقات الفقهاء الشافعيين، ص 170]. فهو علم مقيد بضوابط، ومؤسس على قواعد، ومن لم يجالس العلماء لا يقتدى به في هذا الشأن، ومن قرأ كتب القوم وتتبع أخبارهم وآثارهم تبين له أن علمهم وطريقتهن «مؤسسة على الكتاب والسنة وإلهامات العارفين الذين تنورت عقولهم، وانصقلت مرآة قلوبهم، فتجلى فيها ما كان حقا، وزهق منها ما كان باطلا». [الفتوحات الإلهية، ص 244]. وبعلم التصوف يسلك العبد طريق



الأدب والتربية، وأقرب ما يوصل العبد إلى مولاه «صحبة العارفين ذوي الهمم العالية، والتربية النبوية، والتأدب بين يدي المشايخ: أهل النزاهة والتصفية، على اختلاف مقاماتهم وأحوالهم من: عباد، وزهاد، وفقراء، وصوفية، والبحث عن سيرهم وأحوالهم، والتأدب بآدابهم المرضية، والتحقق بأخلاقهم وشيمهم الزكية». [الفتوحات الإلهية، ص 2].

3. علاقة علم التصوف بغيره من العلوم

العلوم الإسلامية بعضها من بعض، وتباين أسمائها لغايات تعليمية ومنهجية لها ما يقتضيها، ولا يعني ذلك انفصالها عن بعضها، فهي أجزاء في كُُل، وهي كالجسد الواحد، لكل علم كما لكل عضو وظيفة، ونقل غير واحد من أهل العلم أن العلوم التي هي مناط الدين أربعة: أحدها «علم الأصول» ومعاقده معرفة الله تعالى وصفاته، ومعرفة النبوات، ومعرفة المعاد، وثانيها: علم الفروع وأسسه العبادات. وثالثها: «علم التصوف» وأجله الوصول إلى الحضرة والسلوك لطريقة الاستقامة، ورابعها: «علم القصص والأخبار» عن الأمم السالفة والقرون الخالية السعداء منهم والأشقياء [حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، 40/1]. والعلاقة بين جميع العلوم ثابتة غير أنها متفاوتة، وسنجلي هذه العلاقة من خلال بيان مثال العلاقة بين «التصوف» و«العقيدة» و«الفقه».

4. العلاقة بين العقيدة والفقه والتصوف

إن العلاقة بين هذه العلوم ليست علاقة تكامل فحسب، بل علاقة لزوم ولا يتحقق أحدها بمعزل عن الآخر؛ ذلك أنه «لا تصوف إلا بفقه، كما لا فقه إلا باعتقاد وإيمان، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا به، كما لا فقه أيضا إلا بتصوف؛ إذ لا عبرة بفقه لا يصحبه صدق التوجه؛ ولذلك قيل: من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن جمع بينهما فقد تحقق» [حاشية ابن حمدون على شرح ميارة، 135/2]. وقال الشيخ أحمد زروق مبينا هذا القول -الذي ينسب بعضه إلى الإمام مالك- رحمه الله- «تزندق الأول: لأنه قال بالجبر الموجب لنفي الحكمة والأحكام. وتفسق الثاني: لخلو عمله من التوجه الحاجب منهما عن معصية الله، ومن الإخلاص المشروط في العمل لله. وتحقق الثالث: لقيامه بالحقيقة في عين التمسك بالحق» [قواعد التصوف، ص 25]. وإذا كان التصوف قد قصد به إصلاح القلوب فإن «الفقه لإصلاح العمل، وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، والأصول «علم التوحيد» لتحقيق المقدمات بالبراهين، وتحلية الإيمان بالإيقان» [قواعد التصوف، ص 6]. وصفوة القول في بيان العلاقة إن «علم التصوف من حيث إنه



علم باحث عن أحوال النفس وأخلاقها الباطنة كما أن الفن الثاني (أصول الدين) علم باحث عن العقائد الدينية الحقّة وبها طهارة النفس أيضاً لخلوصها من العقائد الفاسدة، فاشتركا في ثمرة واحدة وهي أن كلا طهارة للنفس وتصفية لها» [حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، حسن العطار، 31/1].

التقويم

1. أبين مفهوم التصوف وعلم التصوف.
2. أوضح مبادئ القوم في هذا العلم.

الاستثمار

قال الشيخ أحمد زروق - رحمه الله - «صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه، ولا يصح مشروط بدون شرطه ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: 8] فلزم تحقيق الإيمان ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7] فلزم العمل بالإسلام. فلا تصوف إلا بفقّه، إذ لا تُعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه، ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما بدونه، فلزم الجميع لتلازمهما في الحكم، كتلازم الأرواح للأجساد، إذ لا وجود لها إلا فيها، كما لا حياة لها إلا بها» [قواعد التصوف، ص 25].

أتأمل النص وأستخلص علاقة التصوف بالفقه؟

الإعداد القبلي

أعد ورقة أناقش فيها هذه القولة «التصوف: الأخذ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق».